

العبقرية الأسلوبية في نظم الخطاب القرآني. دراسة في أسرارالتناسق البياني.

 Nassira Chiadi¹ نصيرة شيادي

¹ جامعة أبي بكر بلقايد. تلمسان. الجزائر

E-mail: nassira.chiadi@univ-tlemcen.dz

استلم: 2026-07-16، مقبول: 2026-07-17، نشر: 2026-07-29

Stylistic genius in the structure of Qur'anic discourse: A study in the secrets of rhetorical harmony.

ABSTRACT: *The Holy Quran is the foundational text of Arab- Islamic culture and the eternal miracle with which God challenged humankind and jinn. Its miraculous nature has endured through the ages, renewing itself with evolving approaches to understanding and interpretation. The Quranic discourse has captivated scholars, rhetoricians, and exegetes since the earliest days of Islam, due to its unique linguistic structure and rhetorical organization. This distinctiveness allows it to transcend the boundaries of ordinary human expression, reaching a level of eloquence, beauty, and impact unparalleled.*

From this emerged the theory of arrangement (nazm) among scholars of rhetoric, most notably Abd al-Qahir al-Jurjani, as a scholarly attempt to uncover the secrets of harmony between words and meanings, and to elucidate the aspects of miraculous eloquence inherent in the way the language is structured and organized. While arrangement represents the essence of the Quran's rhetorical miracle, its stylistic genius is manifested in the way linguistic elements are organized within the Quranic discourse to produce multiple meanings and achieve a unique harmony between different levels of expression. The Quran does not rely on the beauty of individual words or the eloquence of isolated phrases, but rather on an integrated network of grammatical, semantic, rhythmic, and pragmatic relationships that place each word in its most specific position and each phrase fulfills a particular function within the overall structure of the text.

This stylistic genius manifests itself in numerous ways, including the precision of word choice, the harmony between structure and meaning, the coherence between the parts of verses and chapters, and the skillful transitions between topics. Furthermore, there is a remarkable interplay between the aesthetic and functional dimensions of the discourse. Every element in the Quranic text plays a role in constructing the overall meaning, such that sounds, forms, structures, and figurative language combine to form a cohesive linguistic fabric through which the unity, coherence, and powerful impact of the text on the reader are revealed.

Moreover, the rhetorical harmony in the Quranic discourse is not limited to the formal or aesthetic aspects alone; it extends to achieving the aims of guidance, persuasion, and psychological and emotional influence. The Quranic discourse addresses both the intellect and the emotions, employing various expressive means to achieve its pragmatic and educational goals. This makes the study of the Quranic structure a fundamental entry point for understanding the secrets of its eloquence and the uniqueness of its style. Therefore, research into the stylistic genius of the Quranic discourse acquires profound scholarly importance, as it reveals new dimensions of its rhetorical miracle and contributes to highlighting the characteristics that have made the Holy Quran a supreme model of eloquence and expression. Based on this premise, this study aims to shed light on the stylistic genius in the structure of the Quranic discourse by exploring the manifestations of rhetorical coherence and the mechanisms of meaning production, thus highlighting the Quranic text's uniqueness and distinction in constructing meaning and achieving impact.

Consequently, the central question posed here is: How is the stylistic genius manifested in the structure of the Quranic discourse through the mechanisms of rhetorical coherence, and what is the effect of this on achieving its miraculous nature and influencing the recipient?

To address all aspects of this topic, I will adopt the appropriate descriptive-analytical method to uncover the mechanisms of rhetorical coherence in the structure of the Quranic discourse. The treatment of the problem raised resulted in a number of results, the most important of which is that the stylistic genius in the Qur'anic discourse clarifies the miraculous nature of the Holy Qur'an. This stylistic genius revolves around five levels: the phonetic, lexical, syntactic, semantic, and rhetorical levels.

KEYWORDS: *Qur'anic discourse; rhetorical harmony; stylistic genius; structure.*

الملخص:

يُعدّ القرآن الكريم النصّ المؤسّس للثقافة العربية الإسلامية، والمعجزة الخالدة التي تحدّى الله بها الإنس والجن، فكان إعجازه ممتدّا عبر العصور ومتجدّدًا بتجدّد مناهج النظر وطرائق الفهم، وقد استأثر الخطاب القرآني باهتمام العلماء والبلاغيين والمفسرين منذ الصدر الأول للإسلام، لما تميّز به من خصوصية في البناء اللغوي والتنظيم البياني، جعلته يتجاوز حدود المؤلف في التعبير البشري إلى مستوى من الإحكام والجمال والتأثير لا يُدرك له نظير.

ومن هنا نشأت نظرية النظم عند علماء البلاغة، وفي مقدمتهم عبد القاهر الجرجاني بوصفها محاولة علمية للكشف عن أسرار التآلف بين الألفاظ والمعاني، وبيان وجوه الإعجاز الكامنة في طريقة تركيب الكلام وتنظيمه. وإذا كان النظم يمثل جوهر الإعجاز البياني في القرآن الكريم فإن العبقرية الأسلوبية تتجلى في الكيفية التي تنتظم بها العناصر اللغوية داخل الخطاب القرآني لتنتج دلالات متعددة، وتحقق انسجامًا فريدًا بين مستويات التعبير المختلفة. فالقرآن لا يعتمد على جمال المفردة في ذاتها، ولا على فصاحة التركيب منفردًا، وإنما يقوم على شبكة متكاملة من العلاقات النحوية والدلالية والإيقاعية والتداولية التي تجعل كل لفظة في موضعها الأخص، وكل تركيب يؤدي وظيفة محددة ضمن البنية العامة للنص.

وتتبدى هذه العبقرية الأسلوبية في مظاهر عديدة؛ منها دقة اختيار الألفاظ، والتناسب بين المباني والمعاني، والتناسق بين أجزاء الآية والسورة، والانتقال المحكم بين الموضوعات، فضلاً عن التفاعل العجيب بين البعد الجمالي والبعد الوظيفي للخطاب؛ فكل عنصر في النص القرآني يؤدي دورًا في بناء الدلالة الكلية، بحيث تتضافر الأصوات والصيغ والتراكيب والصور البيانية لتشكيل نسيج لغوي متكامل تتجلى من خلاله وحدة النص وتماسكه وقوة تأثيره في المتلقي.

كما أن التناسق البياني في الخطاب القرآني لا يقتصر على الجانب الشكلي أو الجمالي فحسب؛ بل يتجاوز ذلك إلى تحقيق مقاصد الهداية والإقناع والتأثير النفسي والوجداني؛ فالخطاب القرآني يخاطب العقل والوجدان معًا، ويوظف مختلف الوسائل التعبيرية لتحقيق غاياته التداولية والتربوية، مما يجعل دراسة النظم القرآني مدخلًا أساسيًا لفهم أسرار بلاغته وخصوصية أسلوبه، ومن ثمّ فإنّ البحث في العبقرية الأسلوبية للخطاب القرآني يكتسب أهمية علمية بالغة لأنه يكشف عن أبعاد جديدة من الإعجاز البياني، ويسهم في إبراز الخصائص التي جعلت القرآن الكريم نموذجًا أعلى للفصاحة والبيان، وانطلاقًا من ذلك تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على العبقرية الأسلوبية في نظم الخطاب القرآني من خلال استكشاف مظاهر التناسق البياني وآليات إنتاج الدلالة، بما يبرز فريدة النص القرآني وتميزه في بناء المعنى وتحقيق التأثير.

وبالتالي فالإشكالية المطروحة هاهنا هي كالتالي: كيف تتجلى العبقرية الأسلوبية في نظم الخطاب القرآني من خلال آليات التناسق البياني، وما أثر ذلك في تحقيق الإعجاز والتأثير في المتلقي؟

ولمعالجة حيثيات الموضوع من كل جوانبه سأعتمد المنهج الوصفي التحليلي المناسب للكشف عن آليات التناسق البياني في نظم الخطاب القرآني.

وقد انبثق عن معالجة الإشكالية المطروحة جملة من النتائج أهمها أنّ العبقرية الأسلوبية في الخطاب القرآني توضح إعجاز القرآن الكريم، وهذه الأسلوبية تتمحور حول خمسة مستويات هي: المستوى الصوتي، والمعجمي، والتركيب، والدلالي، والبلاغي.

الكلمات المفتاحية: الخطاب القرآني؛ التناسق البياني؛ العبقرية الأسلوبية؛ النظم.

مقدمة

يُعَدُّ القرآن الكريم المعجزة الخالدة التي اختصَّ الله تعالى بها خاتم الأنبياء والمرسلين، فكان كتابًا جامعًا بين الهداية والتشريع، وبين العقيدة والأخلاق، وبين الإعجاز البياني والبلاغي الذي تحدَّى به العرب، وهم أهل الفصاحة والبيان. وقد ظلَّ هذا الكتاب العظيم على مرِّ العصور موضع دراسة وتأمل من العلماء والباحثين، فتنوّعت مناهجهم في الكشف عن أسرارهِ ووجوه إعجازه، حتى أصبحت الدراسات القرآنية ميدانًا واسعًا يجمع بين علوم اللغة والبلاغة والتفسير وأصول الدين، ويُبرز ما في القرآن من دقة في النظم، وإحكام في السبك، وتناسق في البناء، وانسجام بين الألفاظ والمعاني.

ويُعَدُّ التناسق البياني من أبرز الخصائص التي تميّز بها الخطاب القرآني؛ إذ تتجلى فيه روعة التعبير، ودقة اختيار الألفاظ، وتآلف التراكيب، وانسجام المعاني، بحيث يبدو النص القرآني وحدةً متكاملةً لا انفصام بين أجزائها، تتساند فيها الكلمات والجمل والآيات والصور لتحقيق المقاصد الكبرى للقرآن الكريم. فلا تأتي لفظة في موضعها إلا وهي الأنسب دلالةً وسياقًا، ولا تُقدِّم كلمة أو تُؤخَّر إلا لحكمة بلاغية، ولا ينتقل السياق من موضوع إلى آخر إلا وفق نظام دقيق يحقق الترابط والانسجام ويمنح النص قوة التأثير وجمال الأداء. ولا يقتصر مفهوم التناسق البياني على الجانب اللفظي فحسب؛ بل يمتد ليشمل مختلف المستويات اللغوية والبلاغية؛ من تناسب الأصوات والإيقاع، إلى ترابط التراكيب، وانسجام الصور البيانية، وتآلف الدلالات، واتساق المقاصد العامة للسورة الواحدة؛ بل وللقرآن الكريم بأسره. ومن هنا يظهر أن البيان القرآني ليس مجرد جمال لغوي أو زخرف لفظي؛ وإنما هو نظام محكم متكامل فيه العناصر التعبيرية لتؤدي المعنى بأبلغ صورة وأدقها، فيتحقق بذلك الإقناع العقلي، والتأثير النفسي، والهداية الإيمانية في آنٍ واحد. وقد أولى علماء البلاغة والتفسير عناية كبيرة بهذا الجانب، فوقفوا عند دقائق النظم القرآني، وأسرار التقديم والتأخير، والحذف والذكر، والوصل والفصل، والالتفات، والتكرار، والمناسبة بين الآيات والصور، ورأوا أن هذه الظواهر ليست أساليب متفرقة؛ وإنما تنتظم في شبكة متماسكة

من العلاقات البيانية التي تكشف عن وحدة النص وإحكام بنائه. وكان للعلماء مثل عبد القاهر الجرجاني (471هـ) أثرٌ بالغ في ترسيخ مفهوم النظم بوصفه أساس البلاغة، حيث بيّن أن جمال الكلام لا يقوم على الألفاظ منفردة؛ وإنما على طريقة تأليفها وترباطها، وهو ما يجد تطبيقه الأكمل في القرآن الكريم الذي بلغ الذروة في إحكام النظم وروعة البيان. كما اهتم المفسرون بإبراز وجوه التناسب بين الآيات والسور، ورأوا أن ترتيب القرآن الكريم ليس ترتيبًا اعتباطيًا؛ وإنما يقوم على روابط دقيقة تربط أول السورة بآخرها، وتصل بين السور المتجاورة، وتجمع بين الموضوعات المختلفة ضمن وحدة فنية ودلالية متماسكة. وقد أسهم هذا الاتجاه في إثراء الدراسات القرآنية، وإظهار جانب جديد من جوانب الإعجاز، يتمثل في وحدة البناء القرآني، وتكامل أجزائه، وتناسق مقاصده.

ويكتسب البحث في التناسق البياني أهمية خاصة في ظل تطور الدراسات اللغوية والنصية الحديثة التي تُعنى بمفاهيم الاتساق والانسجام ووحدة النص؛ إذ يجد الباحث أن كثيرًا من المبادئ التي توصلت إليها اللسانيات النصية الحديثة تتجلى بصورة أرقى وأعمق في الخطاب القرآني، مما يؤكد سبق القرآن الكريم في تقديم نموذج نصي متكامل يجمع بين سلامة البناء، وقوة الدلالة، وروعة الأداء، وعمق التأثير.

ومن هذا المنطلق، فإنّ دراسة التناسق البياني في القرآن الكريم لا تهدف إلى الوقوف عند مظاهر الجمال البلاغي وحدها؛ بل تسعى إلى الكشف عن العلاقات الدقيقة التي تربط أجزاء النص القرآني بعضها ببعض، وإبراز كيفية تفاعل العناصر اللغوية والبلاغية والدلالية في بناء المعنى الكلي، بما يساهم في تعميق فهم النص القرآني، وإدراك جانب من جوانب إعجازه البياني الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد، ويبقى معينًا متجددًا للباحثين في مختلف العصور. ومن ثمّ فإنّ التناسق البياني يمثل أحد المفاتيح الرئيسة لفهم الخطاب القرآني؛ إذ يكشف عن وحدة النسق، ودقة البناء، وتكامل الدلالة، ويؤكد أن القرآن الكريم بناء محكم، تتآزر فيه جميع عناصر التعبير لتحقيق الهداية والإقناع والتأثير.

وأشير هاهنا أنني أقصد بالتناسق البياني هاهنا البحث عن التآلف والانسجام بين مختلف مكونات الخطاب القرآني على المستويات الصوتية والمعجمية والتركيبية والدلالية والبلاغية، من خلال بعض النماذج وليس المقصود به علم البيان بمفهومه البلاغي الضيق.

أولا. ضبط المفاهيم والمصطلحات:

يتركب الموضوع من ثلاثة مصطلحات رئيسة تتفاعل فيما بينها لتشكل جوهر البحث وهي كالتالي: العبقرية الأسلوبية، الخطاب القرآني، التناسق البياني.

أ. ماهية العبقرية الأسلوبية:

العبقرية الأسلوبية هي القدرة المتميزة على توظيف اللغة بطريقة مبتكرة ومؤثرة، بحيث يمتلك الكاتب أو الأديب أسلوبًا خاصًا يميزه عن غيره، ويجمع بين جمال التعبير، ودقة اختيار الألفاظ، وتناسق التراكيب، والقدرة على التأثير في القارئ أو السامع. فالعبقرية الأسلوبية هي التميز الفريد في استخدام الوسائل اللغوية والبلاغية لإنتاج خطاب أدبي أو لغوي يتسم بالأصالة والإبداع، ويحقق أثرًا جماليًا ودلاليًا خاصًا. إنَّ الأسلوبية تدرس الظواهر اللغوية جميعًا بدءًا من الصوت وحتى المعنى مرورًا بالتراكيب. (عياد، د. شكري محمد، 1982م، ص 44. 49)

ب. الخطاب القرآني:

الخطاب أحد مصدري فعل (خاطب) يخاطب مخاطبة وخطابا، وهو يدل على "توجيه الكلام لمن يفهم" (الشيخ محمد بخيت، 1982م، 1/48) وفي اللسان: "الخطاب مراجعة الكلام" (ابن منظور، 1994م، 1/120) وفي المعاجم الحديثة نجد الخطاب يأتي بمعنى الحديث والقول، وتذكر هذه المعاجم عددا من التعريفات منها: "إيصال المعنى إلى السامع عن طريق الكلام" (الخولي محمد علي، 1982م ص 103) ويضيف آخرون إلى هذه العبارة "بحيث تتسلسل الكلمات وتترتب" (فتحي إبراهيم، 1986م، ص 172) ويضيف آخرون بأنَّ الخطاب "قد يكون شفويا أو تحريريا ويعالج موضوعا بشيء من التفصيل" (البلعبي رمزي، 1990م، ص 1020) ويحدده آخر "بالكلام المنطوق عندما يتجاوز الجملة الواحدة ولا" (التونجي محمد، 1993م، ص 300 و بركة بسام، 1985م، ص 61) وأشار الأصوليون إلى تطور مصطلح

(الخطاب)؛ فهو في عُرفهم "يدل على ما خوطب به وهو الكلام" (حمادي إدريس، 1994م، ص 21) ويضيف الكفوي في كلياته عنصرا جديدا إلى التعريف وهو الجانب النفسي فيقول: "إنه الكلام اللفظي أو النفسي الموجه نحو الغير للإفهام" (الكفوي أبو البقاء، 1982م، ص 194) وهو تعريف موافق لتعريف الغزالي في المستصفى (الغزالي أبو حامد محمد بن محمد، 1937م، 1/64). ولا ريب أنّ هذه إضافة نوعية للتعريف توحى بعنصر السياق.

ويعدّ فيرث (Firth) عالم اللغة البريطاني من رواد البحث في موضوع الخطاب في العصر الحديث، وقد درسه في إطاره اللغوي، وتتبعه دارسون آخرون اهتموا بتحليل الخطاب في إطاره غير اللغوي ومنهم هاريس (Hariss)، وميشيل (Michel)، ولابوف (Labov)، وأوستن (Austin) (يقطين سعيد، 1989م، ص 9).

والخطاب كما يظهر في الدراسات المختلفة عملية اتصال تتمّ في إطارين: الإطار اللغوي؛ فقد يكون متوالية من الجمل المكتوبة أو المنطوقة، ينتجها مرسل واحد أو عدة متخاطبين كما يحدث في الحوار أو غيره، وإطار غير لغوي يشمل العادات والأعراف والتقاليد والأخلاق... وهو ما أطلق عليه مصطلح (إثنوجرافيا الخطاب). والخطاب باعتباره حدثا كلاميا يتألف من عدة عناصر هي: المرسل، والمستقبل أو الجمهور، والرسالة أو الموضوع، والهدف، ويؤثر هذا الهدف تأثيرا جليا في استراتيجية المرسل فيملي عليه اختيارات معينة من بين البدائل التي يتيحها له النظام اللغوي، وقد يؤثر في صورة الحديث وطريقة بنائه، وهو يفسر الكثير من المتغيرات الأسلوبية التي ترافق عملية التعبير اللغوي فيما يراه هايمز (يقطين سعيد، 1989م، ص 9) ويربط بعض علماء اللغة هدف الخطاب بالأثر الذي تحدثه وسيلة الاتصال بين المرسل والمتلقي، وقد عبّروا عن هذه الوسيلة باستخدام كلمة قناة (Channel)، والقنوات المتاحة لمنتج الخطاب كثيرة. (مفتاح محمد، 1990، ص 167)

ويتداخل مفهوم النص والخطاب تداخلا كبيرا في الدرس النقدي الحديث لدرجة يصعب معها أحيانا التمييز بينهما، مما دفع بمحرري المعجم الموسوعي للسيمائية إلى معالجة المفهومين في فقرة مشتركة. (Thomas seboek, 1986, 1088) وفي مجال السرديات يستخدم مصطلح

(النص) غالبا مقابلا لمصطلح (الخطاب) ، كما هو الحال في دراسات جنيت وتودوروف (Todorov) وفاينريش (H.Weinrich) (تودوروف تزفتان وآخرون، 1997م، ص 105) ونتفق مع (فان ديك) الذي يقدم تمييزا أكثر تحديدا فهو ينظر إلى النص بوصفه بنية عميقة بينما يمثل الخطاب بنية سطحية، أو ينظر إليهما بوصفهما مظهرين: المظهر التجريدي والمظهر الحسي، والنص مظهر تجريدي بينما الخطاب يجسّد وحدة لسانية تتجلى في ملفوظ لغوي. (Van DIJK.T.A, 1977,p17)

فالنص وحدة مجردة لا تتجسد إلا من خلال الخطاب كفعل تواصل، وفي إطار هذه العلاقة يتمّ الربط النص وسياقه التداولي. وأما هاليداي (Halliday) ورقية حسن فإنهما يبرزان الوحدة والانسجام وعلاقة النص بالسياق فروقا جوهرية بين النص والخطاب؛ فالنص يأخذ بُعدا مختلفا عن الخطاب من خلال صلته بالقارئ والمقام الاجتماعي للتواصل، وبأبعاده غير اللسانية. (Halliday(M.A.K) and Hasan Rugaiya, 1976,p19)

ومن خلال التطواف في البحوث المتصلة بمصطلحي (الخطاب) و(تحليل الخطاب) نجد أنّ الخطاب كلمة تستخدم للدلالة على كل متصل اتصالا يمكنه من أن ينقل رسالة كلامية من المتكلم أو الكاتب، وليس كل خطاب نصا وإن كان كل نص بالضرورة خطابا؛ فالكلام المتصل خطاب، ولكنه لا يكون نصا إلا إذا اكتمل ببداية ونهاية وعبر عن موضوعه ببناء متماسك منسجم، وأما تحليل الخطاب فيعني تكوين الفروض التي تتعلق بالمخاطب، والمخاطب، وروابط الخطاب، ودرجة اتصاله، وتماسك الأبنية المكوّنة له، كما يتطلب تجريدا للمعلومات المتصلة باختيار الألفاظ والتراكيب والمعلومات المكوّنة للخطاب، وتحولات الزمن والدلالات فيه.

ج. التناسق البياني:

يقول ابن فارس (ت395هـ) في معجمه مقاييس اللغة: "النون والسين والقاف أصل صحيح يدل على تتابع في الشيء. وكلام نسق: جاء على نظام واحد قد عطف بعضه على بعض. وأصله قولهم: نغر نسق، إذا كانت الأسنان متناسقة متساوية. وخرر نسق: منظم. (ابن فارس، دت، 420/5)

ومصطلح التناسق البياني لا يُعد من المصطلحات الاصطلاحية المستقرة في كتب البلاغة القديمة، ولذلك لا يوجد له تعريفٌ مباشرٌ بهذا اللفظ، لكن يمكن استخلاص مفهومه من كتب البلاغة والأسلوب، والاعتماد على مصطلحات قريبة: مثل المناسبة، والتماسك والنظم. ومن التعريفات التي يمكن الاستناد إليها ما ذكره عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) في كتابه دلائل الإعجاز، يقول في فصل النظم "واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علما لا يعترضه الشك أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلّق بعضها ببعض، ويُبنى بعضها على بعض..." (الجرجاني عبد القاهر، دت، ص 55) وفي فصل تمام القول في النظم وأنه توخي معاني النحو يوضح الجرجاني أن النظم هو أساس البلاغة، وأنّ الألفاظ تكتسب قيمتها من موقعها في التركيب، لا من ذاتها" (الجرجاني عبد القاهر، دت، ص 368) وبدر الدين الزركشي (ت745هـ) عند حديثه عن علم المناسبة يبين أن من وجوه إعجاز القرآن وجود الترابط والاتّلاف بين الآيات والسور، وهو ما يمثل صورة من صور التناسق البياني، يقول: "هو ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني" (الزركشي بدر الدين، 1990م، 1/132) ويقرر جلال الدين السيوطي (ت911هـ) أن المناسبة بين الآيات والسور تكشف عن إحكام البناء البياني وترابط أجزائه، يقول: "المناسبة تجعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء" (السيوطي جلال الدين، 2008م، ص 631) وهو معنى قريب من التناسق البياني. استنادا لكل ما تقدم نقول إنّ التناسق البياني هو انتظام عناصر التعبير اللغوي، وترابطها وتآلفها في بنية واحدة، بحيث تتكامل الألفاظ والمعاني والصور البلاغية لتحقيق وحدة دلالية وجمالية في النص.

ثانيا: أشكال التناسق البياني في الخطاب القرآني

سأقف هاهنا على نماذج مختارة من أشكال التناسق البياني في الخطاب القرآني على سبيل التمثيل لا الحصر، وأذكر:

1. التناسق البياني على المستوى الصوتي:

سأقتصر هاهنا على الجرس، وانسجام التأليف وذلك على سبيل التمثيل لا الحصر.

أ. الجرس:

الجرس خاصة فطرية في اللغة تكتسبها من أصل الاستعمال الحسي، وللجرس صلة قوية بما ذكره ابن جني من أصوات الحروف التي تأتي على سمت الأحداث المعبر بها عنها كقولهم: خضم وقضم فالخضم لأكل الرطب كالبطيخ والقضاء والقضم للصلب اليابس، نحو: قضمت الدابة شعيرها فاخترت الخاء لرخاوتها للرطب، والقاف لصلابتها لليابس حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث (أبو الفتح عثمان بن الجني، دت، 2 / 157.160)

فالجرس على هذا هو أن يأتي مسموع الأصوات على حذو محسوس الأحداث ونحن لا ينبغي أن ننظر إلى الجرس في ذاته، لأن العبرة بأهميته في الإشعار بالحدث وتصويره للنفس عن طريق حكاية صوته، ولذا فكثيرا ما يرتبط الجرس بالإيحاء، ولا ريب في أن العبارة تستمد قوة دلالتها من قوة مفرداتها الصوتية في أداء معانيها كقوله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ (سورة طه الآية 105. 106)

فالنسف لفظ ذو جرس يحكى أخص ما يقصد منه وهو الاقتلاع والإزالة السريعة إلى أعلى في يسر وسهولة، وهو من NSF الحب بالمنسف وهو الغربال. (شادي محمد إبراهيم، 1988م، ص28)

وللسين صفير تزداد حدته في المصدر (نسفا) من وقوعه في مقطع مقفول بحيث يصور ما في النسف من حدة وسرعة نحو العلو. والهواء الخارج مع مخرج الفاء الهامسة يصور انتشار ذرات الجبال، على أن حروف الكلمة في مجموعها ضعيفة بما يشعر بتفاهة ما صارت إليه الجبال الراسيات على أن تأكيد الفعل بمصدره يؤكد الإزالة والاقتلاع التام (فيذرها قاعا صفصفا) أي ملساء لا حياة فيها، والعطف بالفاء يتجاوب مع السرعة الملحوظة في جرس النسق.

ولا شك في أن الإشعار بالسرعة عن طريق الصوت يعمق لدينا الإحساس بقوة التحكم والسيطرة، ولعل إضافة لفظ الجلالة إلى ضمير المتكلم في (ينسفها ربي ...) يقوي هذا الإحساس لأنها إضافة اعتزاز واعتداد بقدرة الله سبحانه وتعالى، ثم لننظر كيف يُصور جرس الهمس

الهدوء الداهل؛ لأنّ الأصوات للرحمن خاشعة ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ (سورة طه الآية 101)

فهل نجد في مخارج حروف هذا اللفظ (همسا) إلا هدوءا في المخارج وإلا همسا في الصفات، وهل نجد في الميم غير التمتمة المكتومة؛ أي أنّ هذا اللفظ يشيع بجرسه وصفات حروفه جوا من الصمت المشوب بالحذر والهدوء الداهل، وهذا هو حال الخاشع حين يساقُ لربّ العالمين. (شادي محمد إبراهيم، 1988م، ص 29)

وعندما نتتبع الألفاظ التي تتميز بسمت الجرس نلاحظ أنها ربما اكتسبت جرسها وقدرتها على حكاية معناها من مخارج وصفات حروفها كلفظ (يَصْطَرِخُونَ) في قوله تعالى ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ (سورة فاطر الآية 37)

أو من نوع الحركة مع نوع المقطع كلفظ (عتل) في قوله تعالى ﴿عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾ (سورة القلم الآية 13) أو من تضعيف أحد الحروف كلفظ (اثاقلتم) في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ (سورة التوبة الآية 38)

أو من نوع المقطع وتكراره، كلفظ (ككبوا) في قوله تعالى ﴿فَكُكِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ (سورة الشعراء الآية 94) وكلفظ (صرصر) في قوله تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمَرٍّ﴾ (سورة القمر الآية 19)

ومن أمثلة الألفاظ ذات الجرس المشعر بالمعنى لفظة (يصرخون) من قوله تعالى ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ (سورة فاطر الآية 37) فاللفظ يُحكي بجرسه صراخا غليظا مختلطا آتيا من نواحي مختلفة منبعثا من حناجر مكتظة بالأصوات الخشنة، وهذا يُصور ألم العذاب الذي يكتوون به. ولعلنا ندرك مدخل الحروف في جرس الكلمة بالوقوف على الفرق بين صرخ واصطرخ، ولماذا عبر القرآن بالثانية دون الأولى، ولا يوجد فرق في المعاجم بين الصراخ والاصطراخ، فكلاهما للاستغاثة بصوت مرتفع بيد أنّ اصطرخ على وزن افتعل وفي الافتعال تكلف يدلّ على جهد أكبر وتعب أشد من طول الصراخ. (شادي محمد إبراهيم، 1988م، ص 30. 31)

فالإحساس بالتعب نتيجة استمرار الصراخ نراه في (اصطرخ) ولا نراه في (صرخ) وذلك من زيادة الطاء في الأولى، وهو حرف قوي من صفاته الشدة؛ لأنّ مجرى الهواء ينغلق انغلاقاً تاماً عند النطق به فتراه منفجراً في مخرجه، وتسمعه يُحكى بقوته مع سائر حروف الكلمة صوت المستغيث المكظوم المختلط بأصوات أمثاله. ومن الملاحظ أنّ (اصطرخ) أثقل على السمع من (صرخ) فالتعبير ب (يصطرخون) على الرغم من ثقله للدلالة على أنّ ما يصدر منهم إنما هي أصوات بشعة منكّرة، ولا يمكن إغفال دور الجرس في الإشعار بكل هذا.

ب. انسجام التأليف:

الترتيب الصوتي لألفاظ اللغة القرآنية يتميز بصفة التناسق بين أصواتها، وحسبنا لا نجد في قراءة مفردات القرآن الكريم أيّ انتقال مفاجئ بين الأصوات من ناحية شدة التقارب فيما بينها يؤدي إلى التنافر بين الأصوات يخلّ بجمال هذا الانسجام والتناسب بين أصوات اللفظة الواحدة، أو أصوات اللفظة المتجاورة معها، وقد حدث هذا في لغة القرآن الكريم لما فيها من تطريب للأذان وخشوع للنفس، وهو ما يعبر عنه محمد سليمان العبد في قوله "لقد حدث ذلك. وغيره. بفعل هذه اللغة القرآنية المعجزة التي تطرب لها الأذان، ونخشع لها النفوس، وتلين بها القلوب، لما جمعت من لطف الجمال وهيبة الجلال ولعل من أخطر سمات تلك اللغة الفريدة وأبرزها وأقواها تأثيراً هذا الجمع العجيب بين استرسال النثر وإيقاعية الشعر في نظم صوتي هو من دلائل الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم" (محمد سليمان العبد، 1989م، ص 74)

وقد وصف الباقلاني (ت 403 هـ) التناسق والمواءمة في لغة القرآن الكريم، إذ يرى أنّ "لحسن الكلام في السمع وسهولته في اللفظ الصوتي، ووقع المعنى في القلب، وذلك كالخط الحسن والبيان الشافي، والتنافر كالخط القبيح، فإذا انضاف إلى التلاؤم حسن البيان وصحة البرهان في أعلى الطبقات، ظهر الإعجاز لمن كان جيد الطبع، ويُعنى بجودة الكلام، كما يظهر له أعلى طبقة الشعر، والمتنافر ذهب الخليل إلى أنه من بعد شديد أو قرب شديد، فإذا بُعد فهو كالطفر، وإذا قرب جداً بمنزلة مشي المقيد، ويبين ذلك بقرب مخارج الحروف وتباعدها" (الباقلاني أبو بكر محمد بن الطيب، 1988م، ص 243. 244)

وتكاد تنحصر أسباب انسجام التأليف في: النسيج الصوتي، يُسر الانتقال، الإيقاع.

أ. النسيج الصوتي:

النسيج الصوتي للمفردات التي تتشكل منها الجملة حيث تتكون الكلمة في التشكيل المنسجم في حروف ذات صفات معينة تتناغم مع المعنى والجو الذي يدور في إطاره النص (محمد إبراهيم شادي، 1988م، ص 50) وهذه الميزة وإن تحققت في كلام الأدباء والشعراء فإنها عزيزة المنال قلما تجدها عند أديب أو شاعر ولا تجدها عنده إلا بعد تفتيش وطول نظر في كلامه، أما القرآن الكريم كتاب الله المعجز فإنّ تلك الميزة تتحقق فيه بشكل مطرد، ومن الأمثلة القرآنية التي يتضح فيها تخيّر النسيج الصوتي للكلمات بما يشعر بالمعنى ويعمق الإحساس بالمضمون قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَمِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة هود الآية 48)

هنا اجتمعت سبع ميمات في أربع كلمات (أمم ممن معك وأمم) وتزيد هذه الميمات فتصل تسعا مع النطق والقراءة التجويدية حيث تضعف الميم الثانية في (ممن) وتقلب النون ميمًا فيها وتدغم في الميم بعدها حتى ينشأ من هذا أنّ الكلمات الأربع تكاد تكون كلها ميمات، والعبرة في كيفية النطق بهذه الميمات وما يحدثه من ضمّ شديد في الصوت يصحبه ضم شديد متوالٍ للشفتين عند أداء هذه الميمات الملتصقة.

إنّ هذه الآية بأدائها الصوتي تعكس ما كان عليه أصحاب نوح عليه السلام والذين معه من اجتماع وانضمام حول مبدأ واحد وعقيدة واحدة، والاجتماع حول مبدأ والالتفاف من حوله يولد في نفوس المجتمعين إحساس الانتماء الشديد والضم اللصيق وخصوصا في مثل تلك الظروف التي كان عليها أصحاب نوح في السفينة، فبأيّ صورة وبأيّ صوت وحروف ينقل إلينا سبحانه وتعالى هذا المعنى المقرون بتلك الأحاسيس؟

كان يمكن أن يقال: اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى من اتبعك، ويكون هذا مؤديا للمعنى الأول المباشر، لكن ليس هذا هو مجرد ما يريده التعبير القرآني، إنه يريد أن يخلق في نفسك التجاوب النفسي مع هذه الصحبة المباركة وأن يخلق في نفسك الإحساس برضا الله عليهم بأن يولد في نفس كل مستمع الإحساس الشديد بالضم والالتصاق بمجرد أن يلتقط نسمعه هذه الميمات المتضامة الملتصقة" (محمد إبراهيم شادي، 1988م، ص 52.53)

ب. يُسر الانتقال:

من أسباب الانسجام يُسر الانتقال من الكلمة إلى التي تليها بحيث ينتقل اللسان من كلمة لأخرى في سهولة وراحة وكأنّه ينطق كلمة واحدة، وحيث يصل بين نهاية كلمة وبداية أخرى وكأنّه ينطق حرفا واحدا.

وقد ألمح الرماني (ت 384هـ) لهذه الميزة في باب الإيجاز عند الموازنة بين قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ (سورة البقرة الآية 179)

وبين المثل العربي (القتل أنفى للقتل) يقول: "وأما الحس بتأليف الحروف المتلائمة فهو مُدرك بالحس وموجود في اللفظ فإن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة لبُعد الهمزة من اللام وكذلك الخروج من الصاد إلى الحاء أعدل من الخروج من الألف إلى اللام" (الرماني أبو الحسن علي بن عيسى، دت، ص 78)

أي أنّ الانسجام وحُسن التأليف أمر يُدرك بالحس، وقد حاول الرماني تعليل وجوده في اللفظ بحسن ويسر الانتقال من كلمة إلى كلمة بحيث يلائم الحرف الأخير من الكلمة الحرف الأول من التي تليها فينشأ بينهما انتقالا لينة سهلة.

فحُسن الانتقال ويُسرّه بين الكلمة والكلمة في الآية وعدم يسره في المثل يكمن في الانتقالين ذلك أنّ الانتقال بين كلمتي الآية (في القصاص) سهل لئّن لقرب الفاء من اللام أي قرب المخارج وإن اختلفت تلك المخارج فإنّ الفاء من الشفتين واللام من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا فلا تبذل مخارج الحروف وعضلات النطق جهدا في الانتقال بينهما بخلاف الانتقال من اللام في (القتل) إلى الهمزة في (أنفى) فإنه انتقال بين متباعدين مخرجا إذ اللام من طرف اللسان والهمزة من الحلق مما يستدعي جهدا عضليا ومسافة زمنية تساوي المسافة الواقعة بينهما.

ج. الإيقاع:

عندما تكون صيغ المفردات متخيرة دقيقة فإنها تُحدث قوة في السبك، وجمالا في التناسق فضلا عما تُحدثه من إيقاع خاص ينسجم مع دلالة الجملة والعبارة. والقرآن الكريم يبلغ القمة في ذلك، ومثال ذلك قوله تعالى في الحكاية عن سليمان عليه السلام يتوعد المهدهد الذي غاب

عن عينه من غير إذنه ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (سورة النمل الآية 21)

نجد صيغة (لأعذّبنه) و(لأذبحنه) و(ليأتيني) وهي مؤكدة باللام والنون الثقيلة تحدث جرسا وضغطا عند النطق بها بما يصور الغضب والتهديد اللذين يسودان في هذا الموقف، فضلا عن هذا يحدث من توالي التوكيد باللام والنون خاصة إيقاعا خاصا يتناسب مع قوة المعنى. (محمّد إبراهيم شادي، 1988م، ص 59)

وفي بعض الأحيان يكون الباعث على الإيقاع ظواهر تعبيرية تتصل ببعض الألوان البلاغية والبديعية كالطباق والمقابلة والجناس... الغرض منه توازن الجمل وتعادلها في التأليف ومن ذلك قوله تعالى ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة آل عمران الآية 26) تجدها جملا متعادلة في التأليف منسجمة في التركيب، وقد أحدث الطباق دورا في هذا التعادل والانسجام.

2. التناسق البياني على المستوى المعجمي:

التناسق البياني على المستوى المعجمي في القرآن الكريم هو إحكام اختيار الألفاظ وتآلفها داخل السياق؛ بحيث تكون كل كلمة منسجمة مع غيرها في الدلالة والإيقاع والمقام، ولا يمكن استبدالها بمرادف دون أن يختل المعنى أو الأثر البلاغي.

ومن أمثلة ذلك نذكر الفرق بين (المطر) و(الغيث) في قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ (سورة النمل الآية 58) وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ (سورة الشورى الآية 28)

لقد استعمل القرآن هاهنا لفظ المطر غالبًا في سياق العذاب والعقوبة، كما في قصة قوم لوط، حيث أمطر الله عليهم حجارة من سجيل أما الغيث فجاء في سياق الرحمة والإنقاذ؛ لأن الغيث هو المطر الذي يأتي عند حاجة الناس إليه فيغيثهم.

فوجه التناسق المعجمي لم يختار القرآن الكلمتين على سبيل الترادف؛ وإنما جعل كل لفظة مرتبطة بالحقل الدلالي الذي يناسبها: (المطر للدلالة على العقوبة والهلاك، والغيث للدلالة على الرحمة والإحياء) وهذا يحقق انسجامًا معجميًا دقيقًا بين اللفظ والسياق.

ومن أمثلة التناسق المعجمي كذلك ذكر القلب والفؤاد في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ (سورة الأعراف الآية 179) وقوله تعالى ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ (سورة النجم الآية 11) إنّ القلب في القرآن يرتبط غالبًا بالإدراك والتفكير والإيمان والكفر، أما الفؤاد فيدل على شدة الإحساس والانفعال واليقين الوجداني؛ فوجه التناسق حين يكون الحديث عن الفهم والعقل جاء لفظ القلب، وحين يكون الحديث عن المشاهدة القلبية والانفعال العميق جاء لفظ الفؤاد. فكل كلمة تؤدي وظيفة معنوية دقيقة تتلاءم مع السياق.

كما ورد في القرآن الكريم الريح والرياح، يقول جل وعلا: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ (سورة الذاريات الآية 41) وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ (سورة الأعراف الآية 57)

إنّ التحليل الغالب استعمال الريح بالمفرد يكون في سياق العذاب والقوة المدمرة، أما الرياح بالجمع فتأتي في سياق الرحمة وإنزال المطر. فوجه التناسق الجمع يوحى بتعدد الجهات وتلطيف الهواء وتكوين السحب، وهو مناسب للرحمة، أما الأفراد فيوحي بوحدة القوة وشدها، وهو أنسب للعذاب، وهذا يحقق انسجامًا دلاليًا بين الصيغة والسياق.

3. التناسق البياني على المستوى التركيبي:

يقصد بالتناسق البياني على المستوى التركيبي انسجام بناء الجملة القرآنية من حيث ترتيب الكلمات، والتقديم والتأخير، والحذف والذكر، والتعريف والتنكير، واختيار الأسلوب الخبري أو الإنشائي؛ بحيث يخدم كل تركيب المعنى المقصود ويؤدي وظيفة بلاغية دقيقة. ومن أمثلة التقديم والتأخير نذكر قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (سورة الفاتحة الآية 5). إنّ الأصل في ترتيب الجملة العربية أن يقال: نعبدك ونستعينك لكن القرآن قدّم المفعول به (إياك) على الفعل؛ فوجه التناسق التركيبي هاهنا أنّ فائدة التقديم يفيد الحصر والاختصاص؛ أي: لا نعبد إلا الله ولا نستعين إلا بالله. ولو جاء التركيب على الأصل (نعبدك) لما أفاد هذا المعنى بنفس

القوة. كما أن تكرار (إياك) في الجملتين يزيد استقلال كل عبادة واستعانة، ويؤكد أن كلّاً منهما عبادة خالصة لله.

ومن أمثلة الحذف البلاغي قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ (سورة يوسف الآية 82). إنّ القرية لا تُسأل وإنما يُسأل أهلها، والتقدير: واسأل أهل القرية؛ فوجه التناسق التركيبي حذف لفظ (أهل) اعتماداً على فهم السامع؛ فالحذف يجعل التعبير أكثر إيجازاً. ويقوي الصورة البيانية، ولا يوقع في لبس؛ لأن السياق يدل على المراد. وهذا من جمال التركيب القرآني. ومن أمثلة التعريف والتنكير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ثم قال عز وجل: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ (سورة النور الآية 35) فقد جاء لفظ النور معرّفاً فوجه التناسق التركيبي التعريف هنا يدل على الكمال، والشمول، والعظمة. فليس المقصود نوراً من الأنوار؛ بل النور الكامل الذي تهتدي به الخليقة، ولو قيل: (الله نور سماوات وأرض) لفقد التركيب جانباً من هذا الإيحاء.

ومن أمثلة التناسق البياني على المستوى التركيبي ما يخص الخبر والإنشاء، قال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (سورة الفاتحة الآية 6) لم يقل القرآن هاهنا: نحن بحاجة إلى الهداية؛ بل جاء بصيغة الدعاء: اهدنا فوجه التناسق التركيبي اختيار الأسلوب الإنشائي (الدعاء) لأنه أبلغ في إظهار الافتقار إلى الله وأقرب إلى مقام العبودية، وأكثر تأثيراً في النفس من مجرد الإخبار.

ومن أمثلة ترتيب الجمل قوله جل وعلا: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (سورة الشرح الآيتان 5-6) لقد كررت الجملة مرتين؛ فوجه التناسق التركيبي التكرار هنا ليس حشوّاً؛ بل له وظائف بلاغية منها تثبيت المعنى في النفس، وتأكيد الوعد الإلهي، وتقوية الرجاء بعد الشدة. وقد جاء التركيب متوازناً في ألفاظه وإيقاعه، مما يزيد أثره في السامع.

4. التناسق البياني على المستوى الدلالي:

يقصدُ به الترابط المنطقي والموضوعي بين المعاني القرآنية، بحيث تتآزر الآيات والألفاظ

في بناء معنى متكامل يخدم مقصد السورة أو الآية؛ فالمعاني في القرآن ليست متجاوزة اعتباطاً؛ وإنما بينها علاقات دقيقة، مثل: السبب والنتيجة، الإجمال والتفصيل، التعليل، الشرط والجزاء، المقابلة.

ومن أمثلة التناسق البياني على المستوى الدلالي نذكر:

أ. التناسق بين السبب والنتيجة ومثاله قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (سورة الطلاق الآية 2.3)؛ فالسبب هاهنا التقوى والنتيجة الأولى جعل له مخرجاً والنتيجة الثانية يرزقه من حيث لا يحتسب؛ فالعلاقة بين التقوى والرزق ليست علاقة لفظية فقط؛ وإنما علاقة دلالية تؤسس لمعنى متكامل.

ب. التناسق بين الإجمال والتفصيل ومثاله قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ثم قال: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ...﴾ (سورة المؤمنون الآية 1.3) فالسورة افتتحت بحكم عام قد أفلح المؤمنون ثم فصّلت صفات هؤلاء المؤمنين واحدة بعد أخرى؛ العلاقة هنا إجمال ثم تفصيل.

ج. التناسق بالتعليل ومثاله قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (سورة الأعراف الآية 31) فالأمر هاهنا بالأكل والشرب والنهي عن الإسراف ثم جاء التعليل: إنه لا يحب المسرفين؛ فالجملة الأخيرة تفسر سبب النهي، مما يحقق انسجاماً دلالياً.

د. التناسق بالشرط والجزاء ومثاله قوله تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (سورة محمد الآية 7) فالشرط: إن تنصروا الله والجواب: ينصركم. ثم نتيجة أخرى: ويثبت أقدامكم؛ فالبناء الدلالي قائم على علاقة الشرط والجزاء.

هـ. التناسق بالمقابلة ومثاله قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيْسِرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيْسِرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ (سورة الليل الآية 5.10) يقابل القرآن بين فريقين؛ الأول أعطى واتقى وصدق والخ الثاني بخل واستغنى وكذب، ثم يقابل بين النتيجة اليسرى والعسرى، وهذا التوازن الدلالي يزيد وضوح المعنى وقوته.

5. التناسق البياني على المستوى البلاغي:

ويقصد به الوسائل البلاغية التي تجعل النص القرآني منسجما في معانيه وألفاظه وصوره، وأهم هذه العناصر:

أ. التناسق بالتشبيه ومثاله قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ﴾ (البقرة الآية 261). إنّ التشبيه هنا جاء لتقريب معنى مضاعفة الأجر إلى الذهن بصورة حسية، فانسجم الأسلوب مع مقصد الآية في الترغيب في الإنفاق.

ب. التناسق بالاستعارة ومثاله قوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ (الإسراء الآية 24). لقد استُعير لفظ الجناح للتعبير عن التواضع واللين، فصوّر المعنى المجرد في صورة محسوسة مما زاد التأثير البلاغي.

ج. التناسق بالطباق ومثاله قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ (النجم الآية 43) فالطباق بين أضحك وأبكى أبرز شمول قدرة الله، وأكسب المعنى قوة ووضوحاً.

د. التناسق بالمقابلة ومثاله قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ (الليل الآية 5-10) لقد قوبلت صفات المؤمن بصفات الكافر، كما قوبلت عاقبة كل منهما، مما حقق توازناً بلاغياً ورسّخ المعنى.

هـ. التناسق بالتكرار ومثاله قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (سورة الرحمن) إنّ تكرار الآية بعد تعداد النعم يزيد التأكيد، ويشد انتباه السامع، ويقوي أثر الامتنان في النفس.

و. التناسق بالسجع والفاصلة القرآنية ومثاله قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ (الضحى الآية 1-2) إنّ انسجام الفواصل مع الإيقاع الهادئ يوافق جو السورة القائم على الطمأنينة. ز. التناسق بالكناية ومثاله قوله تعالى: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ (النساء الآية 43). لقد استعملت الكناية بدل التصريح، فجمعت بين حسن التعبير ومراعاة الأدب والحياء.

صفوة القول:

استنادا لكل ما تقدم نقول إنّ العبقريّة الأسلوبية في الخطاب القرآني تمثل ذروة الإعجاز القرآني، وما التناسق البياني إلا قطرة من بحر عميق، وهو يمثل أحد المفاتيح الرئيسة لفهم

الخطاب القرآني؛ إذ يكشف عن وحدة النسق، ودقة البناء، وتكامل الدلالة، ويؤكد أن القرآن الكريم بناء محكم، تتأزر فيه جميع عناصر التعبير لتحقيق الهداية والإقناع والتأثير ولقد تجسد هذا التناسق في عدة أشكال نجملها في التالي:

.التناسق البياني على المستوى الصوتي يتميز بتمام التلاؤم بين طبيعة المواقف والأغراض، وبين التعبير عنها، فحيث الوعيد والتهديد تجد البناء التعبيري قويا بجملته وتفصيله؛ بحيث نجد الأصوات زاجرة زجر ما تحمله من معاني، فالشكل والمضمون وحدة متفقة السمات والخصائص، وعلى العكس في مواقف اللين والوداعة نجد البناء التعبيري بحروفه وكلماته وتشكيله وأدائه الصوتي ناطقا باللين والموادعة وهذا وإن دلّ على شيء فإنما يدل على العبرية الصوتية التي يختصّ به القرآن الكريم وحده فسبحان من أنزله وشرفنا بقراءته وحفظه.

.التناسق البياني على المستوى المعجمي في الخطاب القرآني يتجلى من خلال اختيار اللفظ الأنسب للمقام، وتوزيع الألفاظ بحسب حقولها الدلالية مع مراعاة الفروق الدقيقة بين الكلمات المتقاربة في المعنى، وانسجام المفردة مع السياق النفسي والموضوعي للآية، وكذا استحالة إحلال مرادف مكان اللفظ القرآني دون أن يختل المعنى أو الأثر البلاغي؛ ولهذا يعد التناسق المعجمي أحد أبرز مظاهر الإعجاز البياني في القرآن الكريم، إذ يكشف عن دقة الاختيار اللفظي، بحيث تأتي كل كلمة في موضعها لتحقيق الغاية الدلالية والبلاغية بأكمل وجه.

.التناسق البياني على المستوى التركيبي في الخطاب القرآني يتجلى من خلال التقديم والتأخير لإفادة الحصر، أو العناية والاهتمام، والحذف والذكر لتحقيق الإيجاز مع وضوح الدلالة. وكذا التعريف والتنكير بما يتناسب مع المقام والمعنى، وتنويع الأساليب بين الخبر والإنشاء بحسب الغرض البلاغي، وترتيب الجمل وتكرارها بما يعزز المعنى ويقوي الأثر النفسي. وهذه الظواهر التركيبية تكشف عن إحكام بناء الجملة القرآنية؛ حيث تتأزر عناصر التركيب لخدمة المعنى، فيأتي كل تقديم أو حذف أو انتقال أو تكرار في موضعه، محققاً أعلى درجات الانسجام البياني والدقة التعبيرية.

التناسق البياني على المستوى الدلالي في الخطاب القرآني يتجلى من خلال ترابط المعاني داخل الآية الواحدة، والترابط بين الآيات في السورة، وكذا الترابط بين السور، وعلاقات السبب والنتيجة، والتعليل، والإجمال والتفصيل، والشرط والجزاء، والمقابلة، ودقة اختيار الألفاظ بما يخدم المقصد العام، وهذه المظاهر تُظهر أن بناء المعنى في القرآن يقوم على نظام دلالي محكم، حيث يسهم كل لفظ وكل جملة في تحقيق الغاية البلاغية والهداية التي يقصدها السياق القرآني.

التناسق البياني على المستوى البلاغي في الخطاب القرآني يتجلى من خلال توظيف الأساليب البلاغية مثل التشبيه، والاستعارة، والطباق، والمقابلة، والتكرار، والسجع، والكنية، بحيث يخدم كل أسلوب المعنى المقصود ويزيده وضوحًا وتأثيرًا.

المراجع

- الباقلائي أبو بكر محمد بن الطيب، إعجاز القرآن: ط1، تحقيق: السيد أحمد الصقر، عالم الكتب، مصر، 1988م.
- بركة بسام: معجم اللسانية، ط5، طرابلس، لبنان، 1985م.
- البعلبكي رمزي: معجم المصطلحات اللغوية، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1990م.
- الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، دت، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر.
- الزركشي بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، ط1، تحقيق: يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1990م.
- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: مقاييس اللغة، دط، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر.
- حمادي إدريس: الخطاب الشرعي وطرق استثماره، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، 1994م.
- يقطين سعيد: انفتاح النص الروائي، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، 1989م.
- الكفوي أبو البقاء: الكليات. معجم في المصطلحات والفروق اللغوية. دط، تحقيق: عدنان درويش محمد المصري، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1982م.
- محمد سليمان العبد، من صور الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد 36، خريف 1989م.
- مفتاح محمد: دينامية النص. تنظير وإنجاز. ط2، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، 1990م.

- ابن منظور، لسان العرب، دط، دار صادر، بيروت، 1994م.
- السيوطي جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 2008م.
- عياد، د. شكري محمد، مدخل إلى علم الأسلوب، ط1، دار العلوم للطباعة والنشر: السعودية، 1982م.
- أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، دط، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، مصر، دت.
- فتحي إبراهيم: معجم المصطلحات الأدبية، ط1، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، بيروت، 1986م.
- الرماني أبو الحسن علي بن عيسى، النكت في إعجاز القرآن: ط3، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، دت.
- شادي محمد إبراهيم، البلاغة الصوتية في القرآن الكريم: ط1، مطابع المختار الإسلامي، مصر، 1409هـ، 1988م.
- الشيخ محمد بخيت (مفتي الديار المصرية)، سلم الوصول لشرح نهاية السؤل، ط1، المطبعة السلفية ومكتبتها، عالم الكتب، بيروت، 1982م.
- تودوروف تزفتان وآخرون: في أصول الخطاب النقدي الجديد، ط1، ترجمة: أحمد المديني، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1997م.
- التونجي محمد: المعجم المفصل في علوم اللغة (الألسنيات)، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993م.
- الخولي محمد علي: معجم علم اللغة النظري، ط1، مكتبة لبنان، بيروت، 1982م.
- الغزالي أبو حامد محمد بن محمد: المستصفى في علم الأصول، ط1، مطبعة مصطفى حمد.

References

- Thomas seboek, (1986) Encyclopedic Dictionary of Semeiotics, General editor, Tom2, Mouton.
- Van DIJK.T.A, (1977) Text and Context, Longman, London.
- Halliday(M.A.K) and Hasan(Rugaiya), (1976) Cohesion in English, Longman, London.

